من وراء المنظار

آدمى ... !!

كان يوم رأيته آخر مرة فى الحقل يبدو مصفاراً مضعوفاً لم تبق العلة فى وجهه غير أثر ضئيل مما كان يترقرق فيه من نضرة العافية ، ولم يدع السقم فى بدنه إلا بقية طفيفة مما كان يكمن فيه من فتوة الشباب ؛ وكان يجيل الفأس فى حركة أشبه بحركة الآلة البخارية نفد وقودها أو كاد فهدت كأنما أوهنها طول العمل

وألح عليه الداء فلم يبرح داره أياماً ؛ وساورتنى رغبة قوية أن أذهب لأعوده ، ولم أكن أعرف موضع بيته من القرية فاستصحبت من يدلنى عليه

مشيت دقيقتين أو ثلاثاً فيما يسمى فى القرية شارع « دار الناحية » . ثم قادنى صاحبى إلى حارة لا تزيد اتساعها على ثلاثة أمتار أخذت تلتوى ، فأنعطف تارة نحو اليمين وطوراً صوب اليسار وأنا أمر على الجانبين بهاتيك المبانى المتلاصقة التى تتشابه فى كل شئ ، فى صغر منافذها وقلتها ، وفى حجم أبوابها وضاعة مظهرها ، ثم فى هذه الأقراص الجافة المتخذة من روث الماشية والمرصوصة فوق هاماتها كأنها الأكاليل !

ولم أكن دخلت من قبل داراً من هاتيك الدور البائسة ، ولم أر إحداها من الداخل إلا بالنظرة العابرة حين أمر بباب مفتوح من تلك الأبواب القبيحة التى تزين صدر كل منها ضبة أشد قبحاً منه

ووجدتنى فى فناء دار ذلك المريض الذى جئت لأعوده ، وهو فناء لا تزيد اتساعه كثيراً على ثلاثة أمتار فى مثلها ، فى ناحية منه مصطبة عليها جرة من تلك الجرار التى يحمل فيها الماء من الترعة ؛ وإلى جانب المصطبة موقد من الطين أحسب أنه لم توقد فيه نار من زمن طويل فلا أثر للرماد فيه ؛ وفى ناحية أخرى من الفناء وقفت جاموسة عجفاء هى أثمن ما فى الدار من متاع ، بل هى أصل ما فى الدار من متاع ، وعليها وحدها يتوقف ما فيها من معيشة . وكانت أرض الفناء إلا مساحة قليلة مبللة بالماء الذى ينساب إليها من فوق المصطبة حيناً ومن تحت الجاموسة أحياناً !

ودهشت زوجة المريض أن رأتنا وأخذتها ربكة حتى ما تجد كلاماً تقوله ، وبدت الدهشة فى عينيها وفى وجهها وفى ارتعاش أطرافها وتعثر خطواتها وهى تشير إلى القاعة التى يرقد فيها زوجها ... وما كنا لنتخطى تلك القاعة لولم تدلنا عليها ، فلم يك أمامنا غير باب تحكم إغلاقه ضبة عتيقة ، وآخر انفرج قليلاً ؛ وليس مما يجوز فى العقل أن تلك الضبة العتيقة ، تغلق الباب دون المريض ، فليس إلى حبسه سبب ظاهر أو خفى فيما نعلم ...

وأسرعت المرأة أمامنا فدخلت قاعة المريض تخبره بمجيئنا . وتألمت إذ أدركت أنه سيحاول القيام ، فأسرعت فى إثرها لأقسم عليه ألا يفعل ؛ ودخلت ولكنى لم أره أول الأمر ، فالقاعة مظلمة لا يدخلها نور النهار إلا من كوة صغيرة قرب السقف

وسمعت صوتاً يئن ويقول فى إعياء وهمود بالغين: « كتر خيرك يا سيدى ... الحمد لله ... الله يخليك يا رب ولا يريك اللى أنا فيه »

وحركت نبرات ذلك الصوت نفسى من أعماقها ، وخيل إلىّ أنى داخل قبر أستمع إلى صوت آدمى عادت إليه الحياة منذ لحظة ، فهو لطول عهده بالصمت لا يستطيع إخراج الألفاظ إلا فى عسر شديد ... وكاد يغلب الخيال يقينى ، فرحت أستمع إلى ذلك الأنين المؤلم ، وفى وهمى أنه يخلص إلى من تحت الأرض

ولكنى رأيت الرجل حينما اعتادت النظر فى الظلمة عيناى فسألته عما به ؛ فأشار إلى فخذه واسترسل فى أنينه . وقالت امرأته وهى تحبس دمعها : « بعيد عنك ، طالع له طلوع فى فخذه وجسمه سخن زى النار »

ونظرت فرأيت الرجل ممدداً على التراب ، فليس تحت جسده فرش ما ولا تحت رأسه وسادة اللهم إلا خرقة قديمة كورتها له امرأته . وعاد الخيال يغرينى أنه ميت بعث ، وأنه برز من جوف الأرض ، حتى لقد توهمت أنى أرى خضرة الكفن فيما تهدل على جسده الهزيل من ثياب !

ونظرت حولى فى القاعة ، فلم أجد غير بعض الحبال ومنجل وفأس فى زاوية ، فوثبت إلى ذهنى صورة أخرى من صور الموت فقد كان آباؤنا الأقدمون يضمون مع الميت فى قبره متاع دنياه !

وخرجت أستدعى الطبيب وخلفى زوجة المريض تقول فى نبرات حزينة : « حصلت البركة ، مستعجل ليه يا سيدى ، خليك نذبح لك خروف »

أيها التعساء البائسون ! إن بهائم سادتكم الذين يسخرون مثلكم فى فلاحة الأرض لأسعد حالاً منكم ، ومع ذلك فأنتم آدميون كما أنهم آدميون !

الخفيف